

قراءة ودراسة في النثر العربي الحديث

الدكتور

فاضل محمد عبد الله

رئاسة جامعة الكوفة/مركز دراسات الكوفة

المقدمة :

هذا بحث أو دراسة في بعض نواحي الأدب العربي الحديث أردت فيه الخوض في بعض الفنون الأدبية المقال ، المقامة ، الفنون الأدبية الجديدة ، الرواية ، وكنت أود ان اتطرق الى المسرحية والقصة لكنني اكتفيت بهذه الموضوعات لعلاقتها بالمقال الأدبي ، ولان أكثر النقاد تعرضوا لها في هذا الإطار لما وجدوه من الترابط لاسيما في موضوعات مثل المقامة والرواية كما اشرت الى اهم المفكرين والادباء في هذا الصدد متناولا شخصية المويلحي كاتبا ومحمد حسين هيكل كاتبا وان كان هيكل الى الرواية اقرب من فن المقال ثم اني عرضت لكتب الادب المهمة لانها كانت مقالات في مختلف الموضوعات تاركا الامر لتوجيهات الخبراء للاستفادة من ملاحظاتهم وتوجيهاتهم .

والله ولي التوفيق

المبحث الاول

أ- تعريف المقالة

ان التعريف مطلب صعب دائما وهو اصعب ما يكون في ضروب الانتاج العقلي لان التعريف لا يخلو من التحديد والعقل البشري لا يخضع بسهولة للحدود والقيود لهذا لم يكن من السهل ان نعرف المقالة تعريفا يشمل جميع ضروبها وانواعها ولفظ ((مقالة)) من الناحية اللغوية لا يساعدنا كثيرا لانه لا يعدو ان يكون من الاسماء المشتقة من مادة القول :

قال يقول ، قولاً ، قَيْلاً وقولة ومقالاً ومقالة ، ففي مختار الصحاح وجدت المقالة لغة قد جاءت من { (قال) يقول (قولا) و(قولة) و(مقالا) و (مقالة) ويقال كثر (ال قيل) و(ال قال)

وفي الحديث فهي من قيل وهما اسمان وكذا (المقالة) يقال كثرت قالة الناس واصل قلت قولت بالفتح ولايجوز ان يكون بالضم لانه متعد .{

وبحثت عن القالة في معناها اللغوي وكذلك الاصطلاح في معجم اخر فوجدت المقالة قد جاءت من ((قال - قولاً ومقالاً ومقالة : تكلم فهو قائل والقالة : اسم للقول الفاشي في الناس خيراً كان او شراً و(المقالة) : القول وهي بحث قصير في العلم والادب او السياسة او الاجتماع ينشر في صحيفة او مجلة))^٢ اذن المقالة لا يعدو معناها اللفظي انها شيء ((يقال)) فنقول الشخص ما احسن قولك وقيلك ومقالك ومقالتك ... الخ ولكن العبرة في مثل هذه الحال لمعرفة تعريفا للمقالة ليست بالمعنى اللفظي للكلمة بل بالمعنى الاصطلاحي اسوة بالاصطلاحات الاخرى كالنحو والصرف فلا بد لنا اذن ان نبحث عن المعنى الاصطلاحي للمقالة وانه قد وجدت ((ان لفظ المقالة كان يستخدم بمعنى بحث في مسألة او مذهب من المذاهب الدينية او يقسم الكتاب الى ((مقالات)) كل واحدة منها تعالج بحثاً دينياً او فلسفياً اولياً))^٣ وقد عرف الموند جونس المقالة بقوله ((المقالة كفن من فنون الادب هي قطعة انشائية ذات طول معتدل تكتب نثراً وتكلم بالمظاهر الخارجية للموضوع بطريقة سهلة سريعة ولا تعنى الا بالناحية التي تمس الكاتب عن قرب))^٤ وعند بحثي عن معرفة المعنى الاصطلاحي للمقالة وجدت ان محمد يوسف نجم في كتابه فن المقالة قد ذكر تعريفا للمقالة بالمعنى الاصطلاحي قائلاً ((ومن التعريفات المختلفة نخرج بتعريف يكاد يشملها جميعاً وهو ان المقالة الادبية قطعة نثرية محدودة في الطول والموضوع تكتب بطريقة فنية سريعة خالية من الكلفة والرهق بشرطها الاول ان تكون تعبيراً صادقاً عن شخصية الكاتب))^٥ وهذا التعريف ينطبق على المقالة بمعناها الفني .

ب- نشأة المقالة:

عندما نريد البحث عن نشأة المقالة يجب علينا ان نسلط الاضواء على الاداب الغربية والاداب الشرقية والبحث عن اوليات المقالة في هذه الاداب .
فان بذور المقالة في الاداب القديمة ظهرت قبل القرن السادس عشر بكل انواعها المختلفة وهذا الامر ليس فيه منظمة للاستغراب فالمقالة في حقيقتها شأن سائر الفنون الادبية الاخرى تقوم على ملاحظة الحياة وتدبر ظواهرها وتامل معانيها وهذه ظاهرة نفسية رافقت الانسان منذ ظهوره على وجه الارض وعبر عنها منذ فجر التاريخ في

تهاويل السحر ورسوم الكهوف ووجدت في احاديثه ومسامراته قبل عهد التدوين واصبح من عادة الانسان المتأمل فيما بعد ان يدون نتيجة تأملاته على صورة ساذجة تتسم بالبساطة والعفوية بدون خلق قالب محدد وهذا مانجده في امثال الامم وجوامع كلمها والعرب حظ عظيم منها مايرجع الى عهود موغلة في القدم وعليها يعتمد الباحثون في دراسة تطورهم العقلي والمرتبة التي بلغوها في تمرسهم بالحياة واختبارهم لها وتأملهم لمعانيها ثم ان لهم فائدة اخرى في نظر الباحثين هي ان المقالة تصدر عن عامة ابناء الشعب بينما الشعر عن طبقة ترتفع بعقليتها عن مستوى العوام. ١

المبحث الثاني

تأثر الادباء العرب بالادب الغربي وبالاخص كتاب المقالة ١ قيل ان اتطرق عن فن المقالة الحديثة في ادبنا العربي والتي ظهرت فيه كفن مستقل في القرن التاسع عشر رايت ان البحث عن الموقف او الاثر لدى كتاب المقالة تجاه الاداب الغربية فيه الاهمية الكثيرة في معرفة تطور المقالة الادبية في الادب العربي .

ان الشرق والغرب تباريا في نهضة الاداب العربية في القرن التاسع عشر بعد خمولها وخاصة في مجال المقالة.

فاستخرج الغرب من خزائن كنوزه المدفونة فسخرت لدى نشرها الباب ابناء الشرق فتسارعوا الى احراز جواهرها والاستسقاء من مناهلها فاتسعت بها دائرة مداركهم وشحذت اذهانهم وتحسن ذوقهم ولم يانفوا ان يستعيروا من اهل الغرب ما وجدوه موافقا لرقى ادبهم فمهدوا للآتين بعدهم السبيل لتبليغ الادب الى صلح كماله ولن يكمل للمواطن العربي جديد كيانه السلبي الا اذا اضاف الى ادبه صفات وتخلي عن صفات وليس الجانب السلبي هنا باقل قيمة من الجانب الايجابي بل قد يكون التأثير عن الصفات المعوضة ابلغ اثرا من اضافة الصفات المرغوب في اضافتها وفي هذه الفترة من الكتاب العرب من يجزع من الثقافة الاوربية الحديثة اشد الجزع ويعدها ثقافة دخيلة تستهدف التسلط والسيطرة ويلوذ منها بركن من التراث العربي الصرف حتى يكتب الكاتب من هذه الجماعة وكان عشرة قرون او اثني عشر قرنا لم تذهب من عمر الزمان ، ومنهم من يفرح بالثقافة الاوربية الجديدة فرحة الاطفال باللعب والهدايا يقبلونها ولا يحفلونها ويلمسونها من السطح ولا يتعمقونها ، وظهر منهم من يقبل الغرب كله والتراث كله ويحسب ان الجمع بينهما امر ممكن كما صنع العقاد ومنهم من يقبل الغرب كله وبعض

التراث دون بعض كما صنع طه حسين ومنهم من يقبل التراث كله وبعض الغرب دون بعض كما يصنع محمد عبده ومنهم من يجري تعديلا في التراث وفي الغرب معا كما صنع احمد امين وتوفيق الحكيم ومنهم من يكاد يرفض الجانبين معا فلا هو قد تعلم شيء من التراث العربي ليعرفه ولا هو يرضى بقبول الثقافة الغربية خشية ان يقال عنه انهم من توابع المستعمرين امثال هؤلاء سطحيون ولكن من هنا ايضا سر الابداع الذي يحاولونه بدرجات يسيرة.

وعندما ارتقى الادب العربي بجميع الفنون وخاصة من المقالة الحديثة واختلاف طريقة كتابها في الاخذ من الادب الغربي والادب العربي اصبحت المقالة الادبية لها مراحل مختلفة وظهرت بواكير المقالة العربية الحديثة في عدة بلدان عربية .

المقالة الادبية في الادب العربي خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين :

ظهرت المقالة في ادبنا الحديث في القرن التاسع عشر نتيجة لاتصالنا بالغرب واطلاعنا على ادابه حيث تشكل المقالة جنسا ادبيا مهما يقف الى جانب الاجناس الادبية الاخرى ونتيجة لانتشار الصحف والمجلات في الوطن العربي ١ .

وكانت اول البلدان سبقا في مجال المقالة الادبية الحديثة هي مصر ومن بعدها لبنان والعراق وهذا التفاوت بالاسبقية يعود الى سبب التاثر والتطلع الى الادب الغربي كما وضحته سابقا في مسألة التاثير بالادب الغربي من قبل الكتاب العرب .

وسوف اتطرق لمراحل تطور المقالة الادبية في هذه الاقطار (مصر ، العراق)

مبتدا من مصر :

أ- مصر : لقد مرت مصر في اربعة اطوار تطورت بها المقالة العربية الحديثة

وهذه الاطوار هي كالآتي : ٢

اولا : الطور الاول : يشمل مقالات الصحف الاولى وهي الصحف الرسمية التي

اصدرتها الدولة واعانت على اصدارها حتى قيام الثورة العربية واشهر من كتب

المقالة في هذا الطور رفاعه الطهطاوي وعبد الله ابو العود وسليم عنجوزي

وقد نشروا مقالاتهم في (الوقائع المصرية) و (وادي النيل) و (روضة الاخبار)

و (مرآة الشرق) .

وكانت المقالة في هذا الطور تمثل المحاولات الاولى في هذا الجنس الادبي بدائية فكان اسلوبها اقرب الى اسلوب النثر في عصر تدهور الثقافة والادب العربي من حيث الاهتمام بالسجع والمحسنات البديعية والزخارف اما موضوعها الرئيسي فيتمثل في الشؤون السياسية والاجتماعية والتعليمية .

ثانيا : الطور الثاني : الذي شهد صحفا جديدة غير مرتبطة بالدولة اسس معظمها المهاجرون السوريون مثل (الاهرام) (واصدار السيد جمال الدين الافغاني مع تلميذه الشيخ محمد عبده جريدة العروة الوثقى) ٣ وارتبطت مقالات هذا الطور بتاريخ الكفاح الوطني في مصر وكذلك الدعوة الى تطبيق مبادئ الاسلام وكتاب المقالة في هذه الفترة امثال اديب اسحاق وعبد الله نديم ومحمد عبده وابراهيم المويلحي وعبد الرحمن الكواكبي وغيره وامتازت مقالاتهم بالتححر الى حد كبير من قيود السجع في الاسلوب واما موضوعاتهم غلب عليها الموضوعات الوطنية والاجتماعية المتأثرة بروح التححر والاصلاح .

ثالثا : الطور الثالث : وهو الطور الذي شهد مقالات صحف المدرسة الصحفية الحديثة التي اسستها الاحزاب السياسية التي شهدتها مصر في عصر الاحتلال مثل حزب الاصلاح الذي اسسه الشيخ علي يوسف واصدار جريدة (المؤيد) والحزب الوطني الذي انشاه مصطفى كامل واصدر جريدة (اللواء) وحزب الامة الذي كونه لطفي السيد واصدر جريدة (الجريدة) وفي هذه الفترة كانت اتجاهات مقالاتهم منها ما هو سياسي بحث ومنها ما هو علمي وتربوي اما الاسلوب فقد تخلص كليا من قيود السجع والصنعة فاصبح حرا وبسيطا يعنى اساسا بالافكار والمعاني .

رابعا : الطور الرابع : ان هذا الطور بدأ مع قيام الحرب العالمية الاولى وماتلاها من احداث اثرت تاثير كبيرا في الحياة المصرية وفي الشخصية المصرية واهمها ثورة ١٩١٩ واوائل اهم الصحف التي ظهرت في هذا الطور واثرت في تطور المقالة جريدة (السفور) و (السياسية) و (كواكب الشرة) وغيرها واشهر من حرر فيها طه حسين ومحمد حسين هيكل وابراهيم المازني وعباس محمود العقاد وامتازت المقالة في هذا الطور بالتركيز والدقة العلمية والميل الى بث واشاعة الثقافة العامة واسلوبها هو الاسلوب الحديث الذي اشتهر به هؤلاء الكتاب العمالقة الذين هم اقطاب الادب والفكر العربي الحديث وذلك بسبب تاثيرهم بالثقافة الغربية

وما فيها من اتجاهات فلسفية ونقدية واشدهم تأثيرا عباس محمود العقاد لم يكتفِ ولم ينقل عن الادب الغربي فيها قط بل هو ايضا صوب نظرة على الادب الايراني وكان في نقله عن الاداب الغربية والادب الايراني كان ينقد ويحلل ثم يستنبط كابرع ما يكون النقد والتحليل والاستنباط .

ب- العراق : فقد مرت المقالة في تطورها بثلاث مراحل ١ :

اولا : مرحلة العهد العثماني : شهدت هذه المرحلة بعض الرسائل السانجة والبعيدة عن الشؤون والمشكلات الحياتية المهمة واسلوبها هو الاسلوب المسجوع والحافل بالزخارف اللفظية والمحسنات البديعية ولعل هذا يعود الى عزلة العراق عن العالم وتخلفه الثقافي وتاخر ظهور الصحافة فيه لكن الحال تغير باعقاب اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ حيث تطلق الحريات فترة من الزمن وتتشا صحف ومجلات متنوعة مما يؤدي الى تطور المقالة في البساطة في الاسلوب ونبذ الاسلوب المتكلف والتعبير عن موضوعات سياسية واجتماعية تتعلق باغلبية الناس مثل الدعوة الى الحرية ووصف مساويء الاستبداد والدعوة الى مكارم الاخلاق واستقلال العرب .

ثانيا : مرحلة الاحتلال البريطاني : وقد كثرت في هذه الفترة المقالة الادبية نتيجة لتشجيع الانكليز الكتاب للعمل في الصحف التي انشؤها وامتازت المقالة في هذه المرحلة بالسهولة بالالفاظ والوضوح في الافكار ومن حيث الموضوع غلب عليها وصف العلاقات بين العرب والأتراك والعلاقات بين العرب والانكليز والاشادة بالانكليز بوصفهم منقذين للعراق من الظلم العثماني

ج - مختارات للمقالة الحديثة :

- ١- ابتدا بمقالة (الاشراف الالهية وفلسفة الاسلام) لمصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠ - ١٩٣٧) (... كما تطلع الشمس بانوارها فتفجر ينبوع الضوء المسمى النهار ، يولد النبي فيوجد في الانسانية ينبوع النور المسمى الدين ، وليس النهار الا يقظة الحياة تحقق اعمالها و ليس الدين الا يقظة النفس بتحقيق فضائلها ، والشمس

خلقها الله حاملة طابعه الالهي في عملها للمادة تحول به وتغير ، والنبي يرسله الله حاملا مثل هذا الطابع في عمله للروح تترقى فيه وتسمو ، ورعشة الضوء من الشمس هي قصة الهداية للكون بكلام من نور ، واشعة الوحي في النبي هي قصة البداية لانسان في نور من الكلام)^٢ .

هذه المقالة تعكس شخصية كاتبها حيث نشأته العربية الاسلامية وتطلعة على كل ما يتعلق بعلوم العربية والاسلام .

٢- مقالة (المطالبة بالاستقلال) لمحمد حسين ال كاشف الغطاء وهو يخاطب السفير البريطاني ، وكان محمد حسين ال كاشف الغطاء من اعلام المقالة في العراق وصاحب الروح الوطنية (... نعم اعطينونا الاستقلال ولكن الاستقلال الكاذب المزيف . ماتغيرت ولاتبدلت وانما تغيرت الالوان والاوزاع والصور والاشكال ، والروح تلك الروح وبما يحيط عليها من الوحي والاشارة . يعمل الجميع لحسابكم لان الجميع من صنايعكم . وقل من يخفى عليه هذه الحال او يحسب ان هنالك استقلالا)^٣ .

٣- وكان عجلة الزمن قد توقفت والحال كما هو عليه في الزمن الذي نعيشه من احتلال وما جرنا اليه من مشاكل لم نكن نعرفها حتى في زمن الطاغية ، فرحم الله محمد حسين ال كاشف الغطاء على هذه المقالة التي ذكرتها ، ومقالة بخصوص هذا الشأن - شأن الاحتلال - لفهميب عبد الحميد المدرس هي :

(... تالله لقد سنمنا المعاهدات وذيولها ، والمقالات وعقودها ، والمواعيد الخلابية والاساليب الانتدابية التي تجعلك تفكر وتنطق وتعمل وتدين بدين غيرك وبشعور غيرك وبلسان غيرك ولمصلحة غيرك وتحمل نفسا غير نفسك ، فتقاوم وتكافح ، وتعادي وتطعن ، وتعلن نفسك وانت لاتدري ، الاستعمار يريدك الشيء ويرغمك على قبوله بالحديد والنار والانتداب يريدك الشيء ويجعلك من تلقاء نفسك تدافع عنه دفاع المستमित معتقدا بانه هو الحق) (فالاستعمار الصريح خير من الاستعمار المخلوع عليه خلعة الانتداب او الاستقلال والعاقبة وان كانت واحدة الا انك في دولة الاستعمار تموت وانت عارف بدائك ودوانك وفي دولة الانتداب تموت ميتة جاهلية بانسا وشقيا ولكنك معتقد بالسعادة والرقاء والاول يخلف غاندي والثاني يخلف والله في خلقه

ومقالات المدرس تمتاز بالثراء الفكري نتيجة لمحصولة الثقافي الكبير الذي توافر له بفضل اتقانه عدد من اللغات ولانخراطه في النشاط السياسي والاجتماعي ورحلاته الى عدد من الاقطار العربية والاوروبية وجمعه بين الثقافة القديمة والحديثة كما تمتاز بالصدق لانه لم يكتب الا فيما يؤمن به وجاءت في الاسلوب واضح وسهل لاتعتقد فيه ولا تكلف وكذلك اناقة الالفاظ وتناسقها وانسجام تركيبها واختيارها اختيارا موفقا ولهذه الاساليب التي ذكرها من مزايا شخصيته وتأثره واسلوبه فقد ذكرت مقالته في المختارات لانها تجسد خير المثال على اسلوب المقالة الادبية الحديثة ١ وكذلك مصطفى الرافعي محمد حسين ال كاشف الغطاء ويوجد في ادبنا العربي المقالة الكثير من الشواهد بخصوص المقالة الادبية مثل مقالات الشيخ محمد عبده والعقاد الذي خير ما تمثل مقالاته المقالة الحديثة وتأثره بالاداب الاوروبية والفارسية واجادته للغة الانكليزية وكذلك كتابا كثيرون كتبوا المقالة الحديثة ولكنني اكتفيت بهذه الشواهد المذكورة .

المبحث الثالث

١ - المقالة : لم يكن المقال معروفا عند العرب بالشكل الذي نراه اليوم وما كان لديهم ما هو قريب من فن المقال وهو في فن الرسائل او هو الى فن الرسائل اقرب منه الى فن المقال والذي ظهر على يدي عبد الحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ وابن قتيبة وامثالهم ، ففي هذا الفن تناولوا جوانب من المجتمع على عهدهم وخصوا كل جانب منها برسالة تعالجه في بسطة وسعة . وقد تكون الرسالة عدة صفحات كما قد تطول فتقترب من ان تكون كتابا صغيرا . وعلى الرغم من هذا فان المقال يختلف الى حد كبير عن الرسالة فالمقالة تتناول موضوعا اكثر تحديدا وتعرضه بصورة اشد تركيزا وهذا الموضوع يتصل بقضية حية ويتجه فيه الحديث الى الجماعة ويخضع في اخر الامر في اسلوبه لمقتضيات الصحافة التي نشاء معها هذا الفن ، فقد ارتبطت نشأة المقالة في الادب الحديث بالصحافة ، فظهر في ظلها ورافقها على طريق التطور وتأثر في ذلك بالمقال الصحفي الغربي كما تأثر في عرضه بالاتجاه العربي حيث خاض المقال مع الصحافة غمار المجتمع على كل اختلاف مجالاته ومشكلاته بصورة ماضية وما يدور فيه ويصور ما يرنو اليه سواء كان ذلك في الدين ام في السياسة ام في الاجتماع ام في الادب

ام في العلم ام في غير ذلك . فكان بذلك عاملا ايجابيا فعلا في حركات التحرير والاصلاح والنهضة . وكما تنوعت موضوعات المقال وتعددت واتسعت القاعدة التي يوجه اليها الشيء تدريجيا او شيئا فشيئا حتى اصبحت تشمل الجماهير العربية في مصر وغيرها من اقطار الوطن العربي ولذلك اختلف المقال في طريقته وفي قالبه واسلوب عرضه وجمهوره عن الرسالة القديمة المسهبة التي كانت تكتب للخاصة ، وقد جاءت المقالة في الادب المصري خاصة استجابة لضرورات سياسية واجتماعية . ويرى (د . علي جواد الطاهر) ان المقالة هنا ليست انشاء مطلقا قائما على العاطفة او الخيال وليست بحثا مثقلا بالاسانيد والمراجع انما هي عرض يسهل المادة ويجعلها اقرب الى القارىء واخف عليه بما يحاوله المؤلف عن ترقيق في الاسلوب واثارة للذهن وقصد الى الطرافة ، فتؤدي بذلك غرضا قد يعجز عنه البحث في ساعات لاتجد المرء في نفسه استجابة لغير اليسير او المسير وهو يعرض نموذجا للمقال بعنوان اريد ان اكون قصاصا . وهذا النموذج جاء حسب مقتضى الحال " ارغب في ان اكون قصاصا " فما هي القواعد التي تستطيع بها النجاح ؟ ارجوك ان تلخصها لي واعدك بانني التزمها حرفا . حرفا ، ، فليس من الصعب ان اطيع ما تمليه علي مما يجب في حسن الابتداء وحسن التخلص وحسن الختام اعدك بانني اكتب القصة كما تريد .. كما تنقل لي ما قرأته في كتب النقد الادبي ...

الخ (٢)

ولقد اتجه اصحاب احياء التراث القديم الى البحث عن الجذور لهذا الفن الجديد في ادبنا العربي بعد ان تعرفوا عليه في الاداب الغربية فكانت المقالة انسب هذه الاشكال العربية مشابهة للعمل الروائي او للرواية او القفاتخذت هذه المحاولات التجريبية المقامة واسلوب بناءها الفني اطارا شكليا لتقديم هذا الفن الجديد والتعبير من خلاله عن القضايا المعاصرة وكانت ابرز واحداث تلك القضايا هو ذلك الصراع بين الشرق والغرب وما ستتطلبه واقتحام الحضارة الغربية بمستواها المادي للوجدان العروبي من دعاوى الاصلاح والبناء وكانت لاعمال هذه المرحلة من نتاج المتفقيين من دعاة الاصلاح الاجتماعي وظلت للرواية روبا لدى القريب السلفي والغريب الوافد والصراع بينهما كما ظهر ذلك في الصراع بين الشكل الفني وبين المحافظة على لغة النثر الفني وبين الانطلاق الى لغة انتقالية تنقل الافكار مع الاحداث . تميزت هذه المرحلة بعدم الحرص على انماط محددة ترددت بين شكل المقامة وشكل المقالة حيث اخذت من المقامة

زخرفتها وبديعها ومن المقالة أسلوبها وطريقتها في سرد الاحداث وكانت هذه الاعمال تتخذ هذه الاشكال الفنية وسيلة تعليمية لغرض مناقشة مشاكل العصر ولقد ادت الثقافة الفنية التي تمتع بها كبار كتاب تلك الفترة الى تعدد وسائل التعبير وتمايز اساليب الاداء والتعبير الفني بين اتجاهين رئيسين هما الاتجاه الاسلوبي والاتجاه الفكري او الموضوعي .

وفي الوقت الذي كان محمد عبده رائد المقال في مصر كان هنالك ايضا عبد الرحمن الكواكبي الذي نستطيع ان نقول انه محمد عبده الشامي، ولعبد الرحمن الكواكبي :

المجد

((هو احراز المرء مقام حب واحترام في القلوب، وهو مطلب طبيعي شريف لكل انسان لا يترفع عنه نبي او زاهد ولا ينحط عنه دني او خامل ، للمجد لذة روحية تقارب لذة العبادة عند المتفانين في الله ، وتعادل لذة العلم عند الحكماء ، وتربو على لذة امتلاك على تمرها عند الامراء وتزيد على لذة المفاجأة بلذة الاثراء عند الفقراء ولذا يزاحم المجد في النفوس منزلة الحياة وقد طالما اشكل على الباحثين أي الحريصين أقوى حرص الحياة ام حرص المجد، والحقيقة التي عول عليها المتأخرون هي ان المجد افضل من الحياة عند الاحرار وحب الحياة ممتاز على المجد عند الاسراء ، المجد لا ينال الابنوخ من البذل في سبيل الجماعة وفي تعبير الشرقيين في سبيل الله او الدين وفي تعبير الغربيين في سبيل الانسانية او الوطنية والمولى جل وتعالى المستحق التعظيم لذاته ما طلب عباده بتبجيله الاقرن الطلب بذكر نعمانه عليهم ،، وهذا البذل اما بذل مال للنفع العام ويسمى مجد الكرم وهو اضعف المجد او بذل العلم النافع المفيد للجماعة ويسمى مجد الفضيلة او بذل النفس بالتعرض للمشاق او الاخطار في سبيل نصرة الحق وحفظ النظام ويسمى مجد النبالة وهو اعلى المجد وهو المراد عند الاطلاق وهو المجد الذي تتوقد اليه النفوس الكبيرة وتحن له اعماق النبلاء)) .

لعل اول ما يسترعى نظرنا في هذا النص (العنوان) الذي اختاره الكاتب فهو كلمة المجد . ولعله اكتفى بها حيث تشغل عليه حياته وتملك زمام قلبه وهو يريد ان يحقق مفهومها في نفسه وفي نفوس الآخرين . واذا استعرضنا المقال بالدراسة والتحليل .

نجد ان الكاتب في عرضه للفكرة الاولى يحدد مفهوم المجد بأنه ظفر المرء بمنزلة مرموقة في نفوس الناس تقوم على اساسين من الحب والتقدير معا ولعله يرى في ذلك .

قد يحبون شخصا ولا يقدرونه وقد يقدرون شخصا ولا يحبونه وفي كلتا الحالتين لا يملك عليهم عقولهم وقلوبهم ولا يحتل من نفوسهم المكان الذي ينبغي ان يحتله الامجد وينتقل من تحديد مفهوم المجد الى الحديث عن تعلق الناس به فيبين انهم جميعا يلتقون على حبه ويمر عابرا بمرارة الاخلاق الذي يحسه عند من يقطعون عن طلبه في شيء من الاثارة عن اللذة الروحية التي يستشعرها من يظفرون بها وحين يحس انه قد بلغ ما يريد من التأثير في النفوس ومن اقناعها بمكانة المجد لذاته يخلص الى الموازنة بينه وبين الحياة فيرى انه يفضلها عند الاحرار اما الاسراء فهم الذين يعدونها افضل منها .

ولغة الكاتب تعتمد على الالفاظ واضحة المعنى والقريبة الدلالة وهو يحاول ان يستخدم اللفظ والتراكيب استخداما دقيقا كما في قوله عن اللذة تقارب ساعات الكرب تزيد ولكن حماسه لفكرته تغلبه وتطل من خلال الفاظه وتراكيبه وهو متحرر الى حد كبير في بناء العبارة فقد تطول الجملة وقد تقصر ولا تتقيد بالصنعة الافي النادر القليل كما في السجعات التي تتوالى في قوله (وتعادل لذة العلم والفقراء ويظهر ايضا في مقالاته انه نص عن المقال السياسي لانه يرسم سياسة خاصة للحكم والاصلاح وهو يلقي الاضواء على شخصيته من الناحيتين الاجتماعية والفنية ، وليس من شك في ان الصحافة التي عمل في حقها كان لها اثر في تحرير اسلوبه في كثير من الملامح التي اتسمت بها كتاباته . ولقد اثمرت تلك الجهود التي بذلها الكتاب الاوائل مثال عبد الرحمن الكواكبي واليازجي ومحمد عبده وغيرهم في تبلور الاتجاه الذي ارتادوه في طريق المقالة الفنية حيث بدأت هذه الطريقة النثرية الاولى في الادب الحديث تأخذ وضعها الطبيعي بين فنون الادب المختلفة (١)

المنفلوطي

وقد كان المنفلوطي احد الاعلام البارزين في تلك الطريقة التي يمكن ان تسمى الطريقة المنفلوطية ولمقالة سمة خاصة متميزة في المقال الادبي وقد ولد بمنفلوط سنة ١٨٧٦ وتدرج في تعليمه من الكتاب الى الازهر وحضر دروس الشيخ محمد عبده ثم ترك الازهر بعد عشر سنوات وذلك للتغلب الميول الادبية عليه فاتجه الى كتب الادب ودواوين الشعراء وكبار المفكرين وترجماتهم ولقد اتجه الى الكتابة في الصحف فكان من كتاب صحيفة المؤيد البارزين ثم عينه سعد زغلول محررا في وزارة المعارف ثم انتقل سعد

الى وزارة العدل ثم فصل بعد خروج سعد من الوزارة وظل يكتب في الصحف الى ان عينه سعد من جديد في وظيفة تحريرية في مجلس الشيوخ بعد ان عاد البرلمان وبقي هذا العمل حتى توفي سنة ١٩٢٤ . (٢) (٣)

ويتسم المنفلوطي ببعده عن التكلف والتقليد والقصد الى الصدف والاهتمام بحسن الصياغة وجمال الايقاع ورعاية الجانب العاطفي ثم الميل الى السهولة والترسل وترك التعقيد والمحسنات المتكلفة في عدا بعض الومضات من السجع المطبوع الذي يأتي بين الحين والحين . للاسهام في موسيقى الصياغة ولقد كان المثل الاعلى لتلك الطريقة ذلك النثر المرسل الذي خلفته عصور الازدهار العربية ولم تكن كتابة المنفلوطي محاكاة لتلك النماذج التي يمثلها نثر العصور القديمة ولكنها بالرغم من ذلك وبرغم محافظتها ففيها كثير من الابتكار والابداع مع الاصاله وعليها طابع الكاتب وفيها ملامح شخصية ، وهذه الطريقة قد وضعها ورسم معالمها المنفلوطي . تعتبر طريقة محافظة بيانية اشبه بطريقة شوقي في الشعر وكان هو قمة من كتبوا بها (٤) جمع مانشره في صحيفة المؤيد في ثلاث مجلدات باسم النظرات مقالات في الادب والاخلاق والاجتماع رعاية جمال الاسلوب دون الاعتماد على المحسنات البديعية والزخارف اللفظية وفيها الخيار الادبي . وقد استطاعت ان تاخذ تلك الطريقة مسارها في المقال وغلبت نزعتها على الكتابة خلال تلك الفترة وقد طبعت ست عشرة مرة لاسلوبها الذي يجلب القراء وخاصة المحبين للادب وهواة صناعة القلم . فبقيت حية مقروءة على حين اختفت معظم الكتابات التي كانت تهاجم صاحبها وذلك لانها كانت اكثر تمثيلا لروح العصر . ومع هذا لانستطيع ان نقول ان طريقة المنفلوطي هي المثل الاعلى لكتابة المقالة فقد اخذ عليها النقاد اهتمامها الشديد بالاسلوب على حساب الجانب الفكري أي اهتمامه بالناحية الشكلية في صياغة الجمل والعبارات والالفاظ قد اهدر جانبا كبيرا من الفكر كما ان مبالغته في اصطناع الاسى واثارة العاطفة ثم عدم الدقة في الاستعمال اللغوي احيانا والميل الى حشد الالفاظ المترادفة والعبارات المكلمة والكلمات المؤكدة دون حاجة الى ذلك كل هذا اضر بالفكرة وبرغم ذلك فقد كانت مقالاته اول النماذج الفنية التي تقرأ وتستعاد تعجب القراء فهي بحق قطع من الادب لا مجرد كتابات في الادب او الاخلاق او الاجتماعيات ككتابات الكثيرة من غيره . وهذا نص للمنفلوطي .

نص للمنفلوطي

(ايها المحزون ان كنت تعلم انك قد اخذ على الدهر عهدا (١) ان يكون لك كما تريد في جميع شؤونك واطوارك وان لا يعطيك ولا يمنعك الا كما تحب وتشتهي فجدد بك ان تطلق نفسك في سبيل الحزن عناتها كلما فاتك مأرب واستعصى عليك مطلب وان كنت تعلم اخلاق الايام في اخذها وردّها وعطائها ومنعها واهنا لاتلم عن منحة تمنحها حتى تكسر عليها ردها فتستردّها وان هذه سنتها وتلك خلتها في جميع ابناء ادم . سواء في ذلك ساكن القصر وساكن الكوخ ومن يطأ بنعله هام الجزاء ومن ينام على بساط الغبراء فاخفض من حزنك وكفكف من دمعك فما انت اول غرض اصابه سهم الزمان وما مصابك بأول بدعة طريفة في جريدة المصائب والاحزان انت حزين لان نجما زاهرا من الامل كان يتراعى لك في سماء حياتك فيملا عينيك نورا وقلبك سرورا وماهي الا كرة الطرف ان افتقدته فما وجدته ولو انك اجملت في املك لما غاليت في حزنك ولو انك امعنت نظرك فيما تراعى لك لرأيت برقاً خاطفا ماتظنه نجما زاهرا وهنا لا يبهرك طلوعه فلا يفجعك افولُه ، اسعد الناس في هذه الحياة من اذا وافته النعمة تنكر لها ونظر اليها نظر المستريب بها وترقب في كل ساعة زوالها وفناءها فان بقيت في يده فذلك والافقد اعد لفراقها عدته لولا السرور في ساعة الميلاد ماكان البكاء في ساعة الموت ولولا الوثوق بدوام الفنى ماكان الجزع من الفقر ، ولولا فرحة التلاهي ماكانت فرحة الفراق غير ان طريقة المنفلوطي او الاتجاه المحافظ البياني في النشر كما يسميه بعض النقاد (٢) لم تكن الطريقة الوحيدة لكتابة المقال في تلك الفترة ، فالحق ان تلك الطريقة كانت الطريقة الوسطى التي تاتي بين اتجاهين آخرين من الوضوح والقمة حينذاك وحيث تعتبر ان طريقتين مميزتين اخرين اما احد هذين الاتجاهين فقد كان اكثر تشبها بالتراث . واقوى تعلقا ببعض مخلفاته حيث اصطنع السجع على اسلوب المقامات وكانت كتابات اصحاب هذا الاتجاه مقالات في موضوعات اشبه بموضوعات طريقة المنفلوطي فبعضها ادبي وبعضها اخلاقي وبعضها اجتماعي ومع ذلك لم يتخذ هذا الاتجاه لتلك الموضوعات هذا الاسلوب المرسل الحي وانما اتخذ اسلوبا فيه كثرة من طابع الكتابة التقليدية التي عرفت في الفترة السابقة والتي كانت تتناول في اكثر الاحايين موضوعات ليس لها صفة العموم واغلب الظن ان امتداد تأثير هؤلاء السجاعين الشكليين من جانب والتشبث الشديد فيه بعض خصائص الشعر من جانب اخر ثم محاولة بعض الشعراء كتابة نشر فيه بعض

خصائص الشعر من جانب ثالث قد اوجب هذا الاتجاه في كتابة مقاله المسجوعه بالرغم من انطلاق لغة المقالة وتحررها وعليها الى طبيعة الفن النثري الحديث ومن ابرز مايمثل الاتجاه القديم في الكتابة كتاب اسواق الذهب لاحمد شوقي وصهاريج اللؤلؤ للسيد توفيق البكري (٣) ، وهذا نص للشاعر احمد شوقي في اسواق الذهب (٤) .

المال

يامال الدنيا انت والناس حيث كنت سحرت القرون وسخرت من قارون وسعرت النار يامیرون تعود الحق ان يحالفك وكتب على الشر ان يخالطك ويحالفك ، الفتنة ان حركتها اتقدت وان تركتها رقدت وهي الحرب تبعثها ذات لهب منك الرياح ومنك الحطب تزي بالكرام وتغري بالحرام وتضري بالاجرام فقدانك الصر والدر ونكد الدنيا على الحر حالك وحال الناس عتب تملكهم ويقولون اصبحنا وملكنا وترثهم عند اللحد ويقولون ورثنا وتركنا من عاش قومه بما ملك ومن هلك وسائلوا كم ترك المحروم من اوثقك والضائع من اطلقك وهما فقيران من جمعك ومن فرقك كثيرات همومك غم ومع التوسط الخوف والطمع والحرص والجمع حذر النقاد ورغبة في الازدياد . الملك سوقة اذا نزل احد والسوقة ملك اذا علا عليك ارخست الجمال ورفضت الكمال وخطيت لهجم الرجال ، ربات الحجال صويحباتك هن المفضلات وغيرهن المتروكات المعطلات العريان من ليس له منك سترة والمستور من ليس له منك قدره فسبحان تلك قدرة الله قهر لك الخلق وقهرك برجال الخلق .

فهذان اتجاهان احدهما متمسك بالقديم والاخر للمنفلوطي اسلوب خيالي خلاب واما الاتجاه الثالث فهو فكري غربي يمثله المولون وجهوهم نظر الحضارة الغربية فلم يشغلوا انفسهم بتجويد الاسلوب تجويدا بيانيا كما فعل المنفلوطي كما لم يرهقوا اقلامهم بتحميلها اعباء البديع كما فعل شوقي والبكري مهتمين بالجانب الفكري للمقالة . (١) اصبحت المقالة اهم الوسائل التي يخاطب بها الادباء القراء ولها الريادة في النشاط الادبي متخذة طريقها من خلال الصراع الحزبي بين الصحف الناطقة بلسان هذه الاحزاب مستغلة ذلك التنافس الشديد بين المجالات الناطقة بلسان الثقافة والادب التي كان لها الاثر الكبير في تنشيط كتابة المقالة التي توفرت لها كل عوامل الازدهار في ذلك العصر وهو العصر الذهبي لها . تعددت الصحف وبرز فيها اللامعون من الكتاب ومن مظاهر هذا الازدهار

تعددت ألوانها كالمقال الأدبي يدرس شخصية أو ظاهرة أو اتجاه أو أثر في الأدب العربي القديم أو الحديث أو الأدب الأوروبي الغابر أو المعاصر والمقالة النقدية التي تحدد قيمة أو تشرح مبدأ من قيم النقد أو مبادئه أو تطبق هذا أو ذاك على بعض الدواوين أو الكتب أو النصوص الأدبية على وجه العموم والمقالة الفلسفية التي تعرف ببعض الفلاسفة أو تشرح بعض نظرياتهم وأفكارهم ولكن بلغة الآداب وأسلوب الأدباء لابلغة الفلاسفة وأسلوب الحكماء والمقالة التاريخية التي تعرض لعصر مضى أو ثورة سلفت أو بطل غابر أو شخصية أدبرت ثم المقالة الاجتماعية التي تدرج تحتها الكتابة في كل ما يتصل بالمجتمع من أمور سياسية واقتصادية وتعليمية وخلقية وما إلى ذلك مما يتناول الأدباء لاكمتمخصصين في السياسة والاقتصاد والتعليم والأخلاق . ثم المقالة التعبيرية التي كان موضوعها انطباع الكاتب أو شعوره حيال حدث معين أو موقف خاص أو مشهد ما .

وفي هذا اللون من المقالات يكون الكاتب أشبه بالشاعر ولا ينقصه غالباً الجانب الموسيقي المعهود بالشعر حتى يكون عمله قصيدة لامقالة الكتب في الهامش جمعت من مقالات نشرت أولاً في الصحف نشر طه حسين في الساسة الأسبوعية وكانت حول الشعر الجاهلي والإسلامي . (٣)

الثاني عن العباسيين ، الثالث عن الأدب الحديث القديم والجديد . يناقش الرافعي ثم تناول بعض الدواوين في أوقات الفراغ (٤) لهيكل ثلاث مراتب أو مباحث مختلفة في النقد ترجمات متنوعة انتون فرانس قاسم أمين عن مصر وتاريخها تلك المقالات الخاصة للدعوة إلى الأدب القومي . العقاد نشر في البلاغ (٥) (٦) منوع غاية التنوع شخصيات عربية وأوربية مثل المعري والمتنبي وانتون فرانس ومباحث فنية وجمالية مثل عبقرية الجمال . والفنون الجميلة ومعرض الصور ودراسات أدبية ونقدية مثل الأدب كما يفهمه الجيل القديم والجديد .

المبحث الرابع

فنون مستحدثة

رأينا كيف ان ادبنا يتطور تطورا واسعا بفضل الاضواء الغربية التي وفدت عليه وبفضل تحوله من الطبقة الارستقراطية طبقة الملوك والامراء ومن يلوذ بهم الى الطبقة الديمقراطية طبقة الشعب على اختلاف درجاتهم وتحت تأثير هذا التطور عادت الخطابة السياسية الى الازدهار ازدهارا لعل العصور القديمة لم تعرفها من قبل فانها اخذت تستمد من معين الفكر الغربي الذي لا ينضب لما وصل اليه من مبادئ في الحريات وفي الحقوق السياسية كما اخذت تستمد من حياتنا وظروفها التبعة ظروف الحكم السيء والاحتلال البغيض ولم يلبث ان ظهر عندنا خطباء سياسيون مفوهون مثل مصطفى كامل وسعد زغلول ثم انشأنا الدستور القديم والاحزاب ودعاية كل حزب لنفسه وظهر في كل حزب خطباء محترفون يعدون بالعشرات فكان ذلك سببا في نمو هذا اللون من الخطابة السياسية وازدهارها واخذنا عن الغرب نظام القضاء الحديث كما اخذنا عنه الخطابة القضائية اذ وجد نظام المحاكم والمدعين العاملين واصبحت محاكمنا مثل المحاكم الغربية ميدانا واسعا يجول فيه الخطباء من رجال القانون وتعقدت القضايا فتعقد هذا اللون من الخطابة واشتهر فيه كثير من الخطباء القانونيين وبجانب هذين اللونين نشأت الخطابة الاجتماعية التي تلقي في النوادي والمحافل العامة وتتناول جوانب وانسانية مختلفة ففن الخطابة قد اصاب حظا واسعا من الرقي في حياتنا الادبية الحديثة ولكن لانستطيع ان نقول انه فن استحدثناه واوجدناه دون اصول سابقة فلقد كانت خطابة سياسية واجتماعية او حفلية في العصرين الجاهلي والاسلامي. حقا نبليت الخطابة في العصور التالية ولكننا نرث منها على كل حال تراثا قيما واذا كانت الخطابة باستثناء الخطابة القضائية ليست جديدة كل الجدة فان هناك فنونا نثرية اخرى استحدثناها وانشأناها مستلهمين في انشاءها اعمال الغرب وما اقامه وبقيمه فيها من نماذج مختلفة وهي المقالة والقصة والمسرحية والرواية ونحن نعرف الان ان المقالة قالب قصير قلما تجاوز نهرا او نهريين في الصفحة ولم يكن العرب يعرفون هذا القالب انما عرفوا قالبا اطول منه ياخذ شكل كتاب صغير وهم يسمونه الرسالة مثل رسالة الجاحظ (التربيعة والتدوير) ولم ينشؤوه من تلقاء انفسهم بل اخذوه من اليونان والفرس وادوا فيه بعض الموضوعات الادبية التي

خاطبوا بها الطبقة الممتازة من المثقفين في عصورهم ، اما المقالة فقد اخذناها عن الغربيين وقد انشأتها عندهم ضروريات الحياة العصرية والصحفية فهي لاتخاطب طبقة رفيعة في الامة وانما تخاطب طبقات الامة على اختلافها وهي لذلك لاتتعمق في التفكير حتى تفهمها او ترفهها الطبقات الدنيا وهي ايضا لاتلتمس الزخرف اللفظي حتى تكون قريبة من الشعب وذوقه الذي لايتكلف الزينة والذي يؤثر البساطة والجمال الفطري .

ومن اجل ذلك لم يكن ادباؤنا يكثرون من كتابتها في الصحف في اواسط القرن الماضي اوبعبارة ادق في الثلث الاخير منه حتى اضطروا الى ان ينبذوا لفائف البديع واثياب السجع وبهارجه الزائفة التي كانت تثقل اساليب رفاعة رافع الطهطاوي وتعوقها عن الحركة (١) وسرعان ما وجدنا عندنا المقالة الساسية الطليقة من اغلال السجع والبديع واخذت تخاطب الناس بالقريب وتتحدث اليهم في شؤونهم الوطنية وجعلت تؤثر فيهم تأثيرا قويا كان من نتائجه قيام الثورة العراقية في مصر ومن اجل ذلك حيث حوكم زعماء هذه الثورة حوكم معهم كتاب المقالة حينئذ فاختفى عبد الله النديم ونفي محمد عبده وكان قد ابعد جمال الدين الافغاني ولم يصبهم ما اصابهم من ذلك الاسبب ماكتبوا من مقالات سياسية وتغلبى عليها النزعة الخطابية عند النديم اذ كان خطيبا مفهوما من خطباء الثورة العراقية وكأنها كانت متنفسا عنده لثورة وحدث عاطفة الوطنية وهو يمسح عليها احيانا بسخرية مرة وكان احيانا يجري مقالاته في جوانب اجتماعية اصلاحية ماسحا عليها بدعابة حلوة وكان يسود مقالات محمد عبده ، ضرب من الانفعال ولكن في وقار ورصانة وقد شفع مقالاته السياسية بمقالات اصلاحية في الدين والمجتمع الاسلامي كتبها بقلم البصير الحانيق محمسا تارة وفاحصا دارسا تارة اخرى .

واخذ هذا اللون من المقالات ينمو مع نمو عقلنا ويرقى مع رقيه وبلون واسع بين مقالات هذا الجيل الاول والجيل الذي تلاه في عصر الاحتلال مثل مصطفى كامل، الشيخ علي يوسف، لطفي السيد ، فقد بث هذا الجيل الثاني في المقالة السياسية حياة وقوة ومما لاشك فيه ان اقوى شيء قاومنا به الاحتلال البريطاني هي مقالات مصطفى كامل في صحيفة اللواء التي شحذت عزاننا لمناهضة الاحتلال ومصارعته وهو بحق زعيم لحركتنا القومية في عصره غير مدافع اذكان شعلة وطنية متقدة وكان خطيبا مفوها وكتابا سياسيا لايشق له غبار .

اتبع بعض الادباء الاسلوب الاوربي في المقال المتحرر ، واهتموا اعظم الاهتمام
بالجانب الفكري فمالوا الى الموضوعية واصطناع المنطق وجنحوا الى الوضوح والدقة
والترسل الكامل هذا الى تحميل الكلام شحنة الثقافة او شحنة منها والفكر الغربي منهم
احمد لطفي السيد يقول في احد مقالاته عن الاستقلال .

((استقلال الأمة في الحياة الاجتماعية كالخبز في الحياة الفردية لا غنى عنه لأنه لا وجود الأب به وكل وجود غير الاستقلال مرض يجب التداوي منه وضعف يجب إزالته ، بل عار يجب نفيه واستقلال الأمة عما عداها أو حريتها السياسية حق لها بالفطرة لا ينبغي لها أن تتسامح فيه أو أن تنفي في العمل للحصول عليه ، بل ليس لها حق التنازل عنه لغيرها لا بكله ولا بجزئه لأن الحرية لا تقبل القسمة ولا تقبل التنازل فكل تنازل من الأمة عن حريتها كلها أو بعضها باطل بطلانا إليها لا تلحقه الصحة بأي حال من الأحوال ، فلا جرم مع هذا المبدأ المسلم به عند علماء سياسة أن قلت أنه يجب على الأمة أن توجه كل قواها بغير استثناء للحصول على وجودها أي الحصول على الاستقلال)) ونحن إلى جانب هذا الص نختر مقالاً للاستاذ - د - زكي نجيب محمود وهو من الذين برزوا في الميدان الجامعي وعمل بكلية الآداب في القاهرة وله إنتاج أدبي صحفي غزير وهو من الكتاب المعدودين يقول بعنوان تزهّر الشجرة ((تزهّر الشجرة أو تثمر لا تكون لحظة أزهارها أو أثمارها كسائر اللحظات في حياتها لأنها لحظة أكثر أملاً وهفاً ، فشجرة القطن لا تصبح تعبيراً عن طبيعة تلك الشجرة بكامل معناها إلا عند تفتق الزهرة وظهور الثمرة أما ما قبل ذلك فهي في طريق الإعداد للهدف فأما حققت طبيعتها ووجودها وأما أخفقت كانت إلى حطب الحريق أقرب منها إلى شجرة القطن ، ولقد تصورت الشجرة قبل أزهارها أو أثمارها تجمع وتستجمع كل كيائها في فعل واحد هو فعل الولادة للكانن الجديد وربما حذف لأجرائها نوع من التوتر لينفجر بخروج الزهرة أو الثمرة من عالم الخفاء إلى عالم الشهادة وهكذا أيضاً تكون الأمة فكل أمة لحظاتها الفريدة التي تتبلور فيها أخلص خصائصها لا لأنها خصائص تظهر فجأة من عدم بل لأنها كأننة تنتظر اللحظة ، لحظة الأزمان فتتجمع بعد تشتت وتتبدى بعد غموض واختفاء وفي لحظة كهذه تتقاطع كل الخطوط لتلتقي في نقطة واحدة لو أمعنا تحليلها ورويتها لكشفت لنا من غوامض النفس وخوافيها واعتقد أن الأمة العربية تعيش لحظة من هذه اللحظات الكاشفة فإذا سئل منا سائل من نحن ما حقيقتنا وأين نكون وأرى أول ما أرى أننا أمة تحقق وحدتها بالفعل

موحد مشترك ويقول ان التجاوز المكاني وحده لا يكفي في ايجاد الرابطة الحيوية العضوية التي تجعل من الامة امة واحدة (((١)

ويقول ايضا (ومن ابرز سمات الامة الرباط الاسري الذي يوحد العلاقات بين افرادها) يدير الكاتب حديثه في المقال حول بعض السمات التي تتسم بها الامة العربية وفي اثناء تناوله لهذا الموضوع نراه يمهّد له بتمهيد توضيحي يبين فيه ان هناك لحظات تظهر فيها الامة مائلة للرأي وقد زال عنها كل الغموض وخلصت من كل تناقض وتجمعت كلها حول نقطة مضيئة تلتقي عليها كل الخطوط التي ربما ظهرت في غير هذه اللحظات متفرقة متعارضة معتمدا بالتمهيد على شجرة القطن فكان شجرة القطن رمزا اتكأ عليه الكاتب في توضيح فكرته وتمضي اللحظات في احداث فريدة في حياتها ، الازهار او الاثمار وهي اللحظات التي تعد بها شجرة القطن وتحقق عن طريقها وجودها والغاية التي منها تكشف عن كل ما استكن فيها من خصائص في الزهرة التي اطلعتها والثمرة التي اعطتها وكذلك الامة تمر حياتها عبارة حتى اذا كانت لحظات الازمات او الشدائد اختفت سماتها العرضية وظهرت سماتها الاصلية متجمعة متفقة تعبر عن نفسها في وضوح وجلاء وقد عاشت الامة ارواح لحظاتها الكاشفة في حرب السادس من اكتوبر .

الشعر ومزاياه وخواطر عن الطبع والتقليد بعض الصور الوصفية مثل الالم واللذة ساعات متنوعة ، مثل ابن الرومي والمتنبي وتوماس هاردي وشكسبير وايسن روسو .

الشعر في مصر . التجميل في الاسلوب والمعاني والصحيح والزائف في الشعر والنثر ، والشعر حول اعجاز القرآن ، حب المرأة العربية ، النكتة ، حصاد الهشيم للمازني (١) وهو قريب من العقاد له مقالات متنوعة (تاجر البندقية ، رباعيات الخيام) الحقيقة والمجاز من النوع الانشائي الذي يتناول الانطباع وله (قد الريح) المازني (٢) وجه طائفة من مقالاته الى طه حسين للرد عليه (بشر المعري ، المرأة واللغة ، نشأة الشعر) ولقد ادت هذه الثقافة الفنية التي تمتع بها كبار كتاب تلك الفترة ادت الى تعدد وسائل التعبير والى اختلاف الاداء الفني بين اتجاهات مختلفة من ذلك بين الاتجاهين الرئيسيين الاتجاه الاسلوبي والاتجاه الموضوعي واخذ هذا الصراع بين الكتاب الى خلق حوار ادبي لو انه استمر الى يومنا هذا لانتج لنا ادبا راقيا ولازدهرت الثقافة العربية خير ازدهار .

ولقد راينا كيف ان المقال بدأ رحلة الطويلة مع التطور والتحرر من الاساليب القديمة الى الاساليب الحديثة فيستمر ويزداد تركيزا ودقة وقدرة على التحليل وبراعة في العرض مع طواعية اللغة وليونتها وسلاسة الصياغة والتخلص من اثقال الصنعة واذا ما اردنا متابعة هذا اللون من النشاط الادبي المتصل بالمقال نراجع ما يلي

(٣)(٤)(٥)(٦)(٧)(٨)(٩)...

كما ارتاد المقال كل المجالات واكتملت انواعه وتميزت ويمكن ان تلاحظ في هذا الصدد عدة نقاط :-

- ١- ان المقال اتخذ من الصحيفة والمجلة والكتاب احيانا وسيلة لنشره
٢- ان انواعه لايمكن حصرها لتتويع الميادين والموضوعات التي يجول فيها
٣- ان اسلوبه تنوع بين الاسلوب العلمي والادبي والعلمي المتأدب
٤- ان موضوعاته كانت تستجيب للتيارات الغربية في المجتمع وترتبط بها فتكثر
المقالات السياسية مع الصراع السياسي والاجتماعي مع تيارات الاصلاح الاجتماعي .
ولم يشغل المقال في ذلك الوقت حيزا كبيرا في الصحف والمجلات العربية وهو حيز
يتسع لكل جوانب المعرفة والثقافة والاجتماع ويسود فيه الاسلوب الذي يتسم بسمات
العرض العلمي مع جمال الاداء الفني .
ويلاحظ على اسلوب المقالة في تلك الفترة انها لم تتخذ شكلا واحدا بطبيعة الحال
فقد اختلفت اشكاله بعض الاختلاف نظرا لاختلاف الكتاب وطبيعتهم وثقافتهم اولا ثم نظرا
لاختلاف الموضوع المعالج ثانيا ، فحين يكون الكاتب ذا ثقافة فكرية يغلب على اسلوبه
الجانب الذهني والقرب من القضايا المنطقية وما فيها من استدلال واحتجاج ، وحين
يكون الكاتب ذا ثقافة فنية يغلب على اسلوبه طابع التصوير والخيال والشاعرية احيانا
وخاصة اذا كان الموضوع على حظ من العاطفية يحتمل ذلك .
ومن هنا لم تختفي كل انواع المحسنات تماما بل ظل بعضها ياتي بين الحين
والحين وخاصة السجع والتقسيم اللذان يكسبان الكلام موسيقى ويزيدانه تاثيرا وذلك
حين ياتيان مطبوعين وفي مواقف تحتملهما ولمحمد عبده بعنوان خطاء العقلاء نص
يقول فيه .

(ان كثيرا من ذوي القرائح الجيدة اذا اكثرُوا من دراسة الفنون الادبية ومطالعة اخبار الامم واحوالهم الحاضرة تتولد في عقولهم افكار جديدة وتتبعث في نفوسهم همم

رفيعة تندفع الى قول الحق وطلب الغاية التي ينبغي ان يكون العالم عليها ولكونهم اكتسبوا هذه الافكار وحصلوا على تلك الهمم من الكتب والاخبار ومعاشرة ارباب المعارف وعلى ذلك تراهم يظنون ان وصول غيرهم الى الحد الذي وصلوا اليه وسايروا العالم باسرة او الامة التي هم فيها بتمامها مقتضى ما علموه هو امر سهل مثل سهولة فهم العبارة عليهم وقريب الوقوع مثل قرب الكتب من ايديهم والالفاظ في اسماعهم فيطلبون من الناس طلبا حاضرا ان يكونوا على مشاربهم ويرغبون ان يكون نظام الامة وناموسها العالم على طبق افكارهم وان كانت الامة عدة ملايين وحضارات المفكرين اشخاصا معدودين . ويظنون ان افكارهم لعالية اذا برزت من عقولهم الى حيز الكتب والدفاتر ووضعت اصولا وقواعد لسير الامة بتمامها ينقلب بها حال الامة من اسفل درك الشقاء الى اعلى درجة السعادة وتتبدل العادات وتتحول الاخلاق وليس من غاية النص والكمال الا ان ينادي على الناس بارتفاع ارائهم تلك ظنونهم التي تحدثهم بها معارفهم المكتسبة من الكتب والمطالعات وانهم كانوا اصابوا طرفا من الفضل من جهة استقامة للفكر في حد ذاته وارتفاع الهمة وانبعثت الغيرة لكنهم اخطأوا خطأ عظيما من حيث انهم لم يقارنوا بين ما حصلوه وبين طبيعة الامة التي يريدون ارشادها ولم يختبروا قابلية الاذهان واستعداد الطبائع للانقياد الى نصائحهم واقتضاء اثارها) .

وانتقل الكاتب الى الخصائص الاصلية للامة فكان مما عرضه ان وحدثها تتحقق من خلال الممارسة وعن طريق المشاركة في الفعل الواحد لانها في اصلتها ترى من جد الامر في هذه الحالة ما يدفع الفرد لان يخرج من اطار حياته الخاصة مشاركة الآخرين لما اجتمعوا عليه من عمل ، وهذه رابطة عضوية حيوية وهم فيها كفريق الكرة الذين يلتقون على غاية واحدة يعلمون لها بدافع ذاتي صادر من اعماقه ، ان العلاقة بينهم مع وحدة العمل المشترك ليست مجرد المصلحة وليست كالعلاقة بين ركاب سفينة اشرقت على الغرق فجمعهم الخطر على مواجهة الازمة ثم يزول الخطر بزواله ، فتزول هذه الرابطة انها علاقة الاسرة الوحيدة وهي علاقة وثيقة ممتدة قد تختفي في لحظات الحياة العادية ولكنها تظهر بوضوح في لحظات الشدائد على ان اهم سماته التصوير التوضيحي الدقيق الذي يقع في الامة كالمصاييح المضينة تلقي اضوائها على الفكرة فتكشف عن دقانها وخصائصها وجوانبها وهذه الظاهرة تظهر في النص من اوله الى اخره .

(ومن ذلك عندما تزهو الشجرة او تثمر كانت الى حطب الحريق اقرب منها الى شجرة القطن) ((تتقاطع كل الخطوط لتلتقي في نقطة واحدة))

والانتقالات في النص تمضي في منطقية عقلية تتسلسل فيها الافكار وقد اسلمت كل منها الى ما بعدها ارتبطت بما قبلها ، ومما يصور النص عمق ثقافة الكاتب واتساعها الى المعارف الحديثة في جوانبها المتعددة والمعارف القديمة كما في حديثه في النص عن قضايا قديمة كادارة الخير والشر و ارادة الله تعالى والمدد الذي ياتيه من الله ثم يلون كتاباته تلويها ويضفي عليها من الجمال الفني ما يحملها الى النص مع اقناعه بتأثيره في اشياء ممتعة . هذا النموذج ايضا كانت له الريادة والسيادة الذي استقرت عليه الحياة الادبية للمقال . ثم تطور المقال نتيجة لهذا الوعي الذي كان ينمو وينضج في تلك الفترة في النصف الثاني من القرن الماضي فقد وعى الادباء واقنعهم بكل ما فيه من حاجات الى الاصلاح الساسي والاجتماعي والديني واتجه فريق من مثقبيهم الى الكتابة في تلك الجوانب الاصلاحية الكثيرة متخذين من الصحافة تلك الوسيلة الجديدة اداة لتوصيل ارائهم وافكارهم الى مواطنيهم وبدانوا يكتبون باسلوب قريب من الاسلوب التقليدي المزركش ثم اخذوا تدريجيا يتخلصون الى اسلوب الترسل فلم يكن من الممكن ان يتجهوا الى الجمهور الا عن طريق الصحف بتلك اللغة المتكلفة الملتوية الثقيلة لانها عاجزة عن علاج المشكلات ثم لانها لم تفهم من جمهور القراء ثانيا فكان لجوء الكاتب الى الاسلوب الغربي بصفة عامة .

والعربي بصفة عامة متفائل في طبعه وصبره معتمدا في ذلك على عدالة السماء ويحمل التبعات حين يراد لها ان يحملها والنص من الادب الاجتماعي الذي يشف عن نظرة تحليلية لبعض الخصائص الاصلية للامة ونرى الكاتب يهيء القاريء للدخول في الموضوع عن طريق تصوير حسي جذاب في دقة وعمق في الفكرة وفيه قرب ووضوح عن طريق المثل الذي عرضه لشجرة القطن .

ومن هذا التمهيد الذي تحدث عن لحظة الهدف والامل في هذه الشجرة والصفات العريضة التي تختفي عندها والصفات الاصلية التي تظهر معها دخل الى كيان الامة ولحظات الازمة التي كشف عن معدنها النقي وصفاتها الراسخة في اعماله .

واذا احس ان القاريء معه بعقله وقلبه اخذ يسوق له هذه الخصائص البارزة في حياة الامة ، ومن ذلك (انها تلتقي على الوحدة من خلال العمل المشترك والفعالية

المنبثقة من الداخل وان الرباط بينهما رباط اسري وان العربي متفائل يحمل تبعاته عن عقيدة راسخة وثقة واعية بالله وبأرادة الخير والقدر) وهو لا ينتقل من سمة الى اخرى حتى يظمن الى انه تركها واضحة لاتحتاج الى مزيد من الاقتناع . ويطالعنا النص بملاحم كتابه وسماته الفنية انه يسوق لنا اللفظة دقيقة مستقرة في موضعها فقد ادت الدلالة التي اراد لها ان تؤديها في سر ووضوح وجمال . وتطالعنا هذه الظاهرة في مثل التوتر باقواله الكاشفة وخیالاته الهادئة تجمع الى سماتها متانة وقوة وتطول معها الجمل في عذوبة ودون التواء ومع رعاية لروح العصر في التعبير من مثل اشارته بحيث تتبلور فيها اخلص خصائصها وهو يجاوز حدود نفسه ليفتح على الآخرين (الرابطة الحيوية العضوية) رباط الفاعلية المنبثقة من الداخل ... الخ) وبذلك تتضح الملامح الحقيقية والسمات الفنية في النص عن مقدرة الكاتب بهذه اللغة البسيطة لقيت صدى واسعا لدى جمهور القراء .

المبحث الخامس

المويلحي كاتباً

يقترّب المويلحي في حديث عيسى ابن هشام وحافظ ابراهيم في اساليب سطّيح من اشكال النشاط القصصي الذي اعترف به كبار مثقفي تراثنا وهو شكل المقامة مرتبطاً بالمقالة .

وكان طبيعياً ان لا يعترض كتاب الايام لطفه حسين نتيجة لذلك الى نفس المخاوف والمحاذير التي تعرض لها مؤلف (رواية زينب) ((محمد حسين هيكل)) والتي جعلته يمتنع عن كتابة اسمه عليها .

كما نستطيع ملاحظة ان ملامح الترجمة الذاتية سيطرت على كتاب الايام ثم اخذت هذه الملامح تخف تدريجياً ، وفي خط متصاعد لتنتقل السيادة الى عودة الروح لتوفيق الحكيم الى فن الرواية فلعل هذا التصور هو الذي يحملنا على دراسة كتاب الايام .

المويلحي كاتباً :-

ويعد المويلحي بيك ابن سيد ابراهيم بيك ت ١٩٢٣م صاحب اول محاولة تجديد في فن المقامة والرواية في تصوير الاخلاق والاحوال في البيئة والعصر حيث دخلت المقامة في عصره طوراً جديداً فجاءت مقامته وقد غلبت عليها روح التأمل الناقد ملهمة

بما ينبغي أن تكون عليه المقامة على حد قول - د- شوقي ضيف (١) . (أنها ليست قصة
انما هي حديث ادبي بليغ وهي اقرب الى الحيلة منها الى القصة وللمويلحي مجالات
واسعة في كتابة الرواية والمقامة والمقالة تاثر بجمال الدين الافغاني وحرر في جريدة
مراة الشرق (٢) .

ووجدت نفسه بين انفس الكتب بين الاثار الشرقية والغربية وكان كثير التردد على
الجرائد والمجلات في القاهرة الحرة وغيرها وتمكن من نسخ رسائل الجاحظ ورسالة
الغفران ومنتف من الادبين العربي والغربي بين قصيص وحكم وامثال ونوادر وعني
بتدوينها في السجلات الكبيرة ثم اشترك في تحرير جريدة المنبه وحين عاد الى القاهرة
من باريس اشترك في تحرير جريدة القاهرة الحرة اليومية وظل يكتب فيها حتى اوقفها
صاحبها بناء على سفره الى الاستانة بدعوى من السلطان عبد الحميد تابع مقالاته في
الصحف المصرية فنشر سلسلة مقالات في المقطم وظل يوالي الكتابة مع والده حتى عين
مديرا لمديرية الاوقاف ١٩٠١م لخمسة اعوام . استقال واثر العزلة التي اختار لها من
بين تلامذته ومريديه طائفة عاونته على رفع شأن اللغة العربية ورفع بمستوى الكتابة
في ذلك الحين الى درجة رفيعة وكان من بين اللذين شاركوه عبد اللطيف البشري وعبد
الحليم المصري واحمد الكاشف والعقاد ومحمد مصطفى (٣) .

قال المويلحي ((اهدي كتابي هذا اي حديث عيسى ابن هشام الى المرحومين
الاديب الوالد والحكيم جمال الدين الافغاني والعالم محمد عبده واللغوي الشنقيطي
والشاعر البارودي وهؤلاء الذين انعم الله عليهم وهم الذين تادبت بتأديهم واخذت
عنهم)) وهو يترك اهم مؤلفاته وهي (رسائل في الاخلاق في علاج النفس) نشهد له
في الزعامة القلمية في عصره وتضعه في جمهرة الكتاب الشرقيين والغراب في مصاف
حملة الكتابة النثرية في ذلك العهد . وقد افاد حديث عيسى ابن هشام الدارسون في
البلاغة فائدة كبرى .

في الصيغ الطريفة وقوة التعبير وجمال في الاداء وتديير الوان الاحتجاج لطرفي
الموضوع الواحد وجاء الحديث بعد ان صارت محاولات التجديد على طرفي نقيض .
فريق حاول تمثل الشكل القديم واخر جنح الى التقليد الغربي وفي وسط هذا الجو
المشحون بوجهات النظر المتعارضة جاء حديث عيسى ابن هاشم ليوافق بين تلك
الوجهات المختلفة .

ان هدفه من حديثه هذا ان يشرح اخلاق العصر واطوارهم ان يصف ما عليه الناس من النقائص بحيث يتعين اجتنابها والفضائل التي يتعين العمل بها وهو يبداء حديثه بتأملات فلسفية عن هذا الزمان الخ ... هذه التأملات الفلسفية التي يرى فيها - د - شكري عياد (١) . يرى فيها اثرا في شكل الكتاب وفحواه وينقسم الكتاب الى رحلتين احدهما زمانية والاخرى مكانية وقد استطاع جمعهما في فصول لكل فصل وحدته المستقلة التي تشكل عملا قصصيا قصيرا له وحدة بناء خاصة به تتمثل في تطور الاحداث منذ لحظة الابتداء حتى النهاية ، وليس من موضوع التعرض الشامل لكتاب عيسى ابن هشام فهذا حري بأن يكون بحثا مستقلا تفيض فيه النواحي الفنية ، وتأثرت هذه الاعمال بالاستكشافات القصصية التي ظهرت في الغرب وكانت تحاول هجاء العادات والتقاليد والطبقات الاجتماعية . وربما برز هذا التطور من خلال الترجمات التي قام بها محمد عثمان جلال ورفاعه الطهطاوي وعلي مبارك وكانت هذه الاعمال تحاول ان توفق بين نشأة المقامة وبين الشكل الروائي الجديد ومع زيادة النزعة الاصلاحية ، وقد بدء ظهور التأليف الروائي مبكرا حيث صاحب تلك المحاولات التجريبية التي تمثلت في النزعتين التي اشرنا اليهما نزعتا الاحياء والترجمة فقد سمحت هذه المحاولات بالفعل لتتبع الانتاج الفني لهذا الفن الجديد .

كما كان للصحافة دور كبير للرواية والمقالة (٢) . وعرضها على القاريء تلك الرواية التي لاقت رواجا في عقول القراء فاصبح التأليف الروائي سوقا رائجة لكل من يستطيع ان يحكي حكاية للناس تتخللها علاقة غرامية او تحفل بمغامرة اوبهما معا تفند هذه البديهييات او تصل الى الخلاص الشعبي باسلوب بنائها وكان كتاب هذه الروايات اكثر اتصالا بالواقع الاجتماعي واكثر اتصالا برواية الغرب وقد صدرت هذه الاعمال عن تاثير مباشر للدعوة الاصلاحية التي كانت سائدة على الحياة .

وتمكنت هذه الاعمال من الاحساس بالانسان والاقتراب منه ومحاولة الاصلاح والتخلص من الجوانب التي علقت بلغة الجيل السابق ، ثم تظهر رواية زينب لمحمد حسين هيكل واستطاعت ان تكون اشمل روايات هذه المرحلة الريادية . ربما ذلك لمؤلفها .

وتاثير هيكل بتلك المفاهيم السياسية كمفهوم الحرية عند روسو انذاك متأثرا بدعوة خاله محمد عبده بالقيم العربية وان تكون مصر للمصريين وهو يصور الريف

تصويرا دقيقا وللاذيق ذات يعبر عنها باللغة العامية في الرواية نتيجة لدعوى لطفي السيد (٣) .

حديث عيسى بن هشام تداخل بين المقامة والمقالة والرواية فاين يضعه الدارسون بين هذه المجالات افاد الدارسين كثيرا من البلاغة العربية في الصيغ الطريفة وقوة التعبير وتدبير الوان الاحتجاج لطرفي الموضوع الواحد .

وجاء الحديث بعد ان صارت محاولات التجديد على طرفي نقيض ، فريق حاول تمثل الشكل القديم واخر جناح للتقليد الغربي ، وفي وسط هذه الجو المشحون بوجهات النظر المتعارضة جاء حديث عيسى بن هشام ليوفق بين تلك الوجهات وهدفه من حديثه هذا ان يشرح اخلاق العصر واطوارهم وان يصف ما عليه الناس من النقائص التي يتعين اجتنابها ، والفضائل التي يجب التزامها وهو يبدأ حديثه بتأملات فلسفية عن هذا الزمان ويقول ((وكنت احدث نفسي بين تلك القبور وفوق هاتيك الصخور بغرور الانسان وكبره وشموخه بمجده وفخره واغراقه في دعواه واسرافه في هواه)) الى اخر هذه التأملات الفلسفية التي يرى فيها - د - شكري عياد اثرا في شكل الكتاب وفحواه .

ويرى د. علي الراهي في كتابه ((دراسات في الرواية المصرية)) (اننا بتأملنا برواية المويلحي نجد انها تقوم اساسا على مقابلة عقلية بين عقلية الباشا الذي قام من قبره ليجد الدنيا تغيرت من حوله فماتت قيمه الجميلة التي كان ينبغي ان تظل حية وقامت قيم تتصادم مع عقلية الباشا القديمة وبين عقلية المعاصرين الجدد وبذلك يخرج لنا نقده الاجتماعي الطريف)

اسلوب المويلحي :

يمتاز اسلوبه بتجويد الصياغة والميل الى البديع ويهتم بجماليات اللغة في ذاتها كما نلمح فيه الموسيقى الصوتية وتوافقها في توالي المقاطع (فوجدنا في ساحتها اقوا ماذوي وجوه مكفهرة والوان مصفرة وانفاس مقطوعة واكف مرفوعة) تمثل في الميل الى الانسياب الحريص على توصيل الافكار ، واستطاع ان يتحرك باللغة قليلا في محاولة لتقديم صور خارجية للشخصية او المواقف بالرغم من اهتمامه بالصنعة اللفظة .

استطاع ان يقدم باستغلاله للبناء الشكلي للمقامة شكلا قصصيا اكثر نضجا من المقامة العربية تمثل في محاولة لتطويع اللغة بالانتقال بها الى ان تكون اداة توصيل كما نرى في الحوار الذي دار بين النائب وزائريه في المحكمة .

المبحث السادس

نبدأ سؤالا لماذا زينب ؟ التسمية واسباب التأليف ؟

تنطلق من قول الكاتب ((زينب ثمرة الحنين الى الوطن ، ومافيه صورها قلم مقيم في باريس ، يلوذ بحنينه الى مصر على الرغم من اعجابه بباريس وبالادب الفرنسي)) (١) من هنا نمسك بداية الخيط التي اشار اليها هيكل ، انها ثمرة البعد والحنين الى الوطن ، ولابد ان تكون زينب اسما حقيقيا او رمزيا فهي بكل الاحوال امرأة من مصر ، ترى من هي زينب ؟ انها عزيزة ابنة عمه التي يحرم عليه ذكر اسمها في كتاب ذلك الفتى الريفى الذي يخاف على ضياع حبه فيظطر الى اخفاء اسمها ، زينب او عزيزة الفتاة المتحررة التي حالت الظروف بينها وبين من احبها بالزواج وكانت اخيرا من حصة ابراهيم التي لم تفلح معه وقد خسرت كما خسرت حبيبها الاول حامد وكانت التقاليد تلعب دورا كبيرا في هذا الحرمان حتى انتهت الى نهاية مأساوية مفاجئة (٢) مؤثرات كتاب زينب !! كلنا يعلم بذلك التأثير الذي انعكس على الكاتب هيكل خاصة من الادب الفرنسي وتلك الدعوات الاصلاحية التي تزعمها روسو في نهاية القرن التاسع عشر وقد افاد من نزعاته الكثيرة في معالجة المفاهيم الانسانية كالحرية والمساواة ونقض التقاليد وقد صور الكاتب الريف المصرى على حقيقته وهنا يقترب كثيرا من (روسو) في نقل واقعيته مع الاستخدام المباشر للهجمة العامية اسلوبا مباشرا . (٣) مع تاثر الكاتب هيكل بزميله قاسم امين صاحب الكتابات الكثيرة المدافعة عن حقوق المرأة فهو يتخذ فكرة مشابهة لافكار امين في طرح هموم المرأة مما يتعلق بحياتها وخاصة زواج الاجبار والسؤال الذي يطرح نفسه ؟

كيف دخل هيكل الى روح زينب ؟

كيف صنعه لها تمثالا روائيا لايمحى على امتداد الايام ، لقد رسم لها صورة الفتاة الريفية الساذجة المصابة بمرض السل ولما لهذا المرض الخطير وخاصة في القرن المنصرم من دور مؤثر ومخيف فما ان يسمع المرء بالاصابة بهذا المرض حتى يبداء الشك والخوف يحاصران روحه فيدب اليأس وهذا المدخل شبيه لما تنتهي به الروايات الفرنسية كوسيلة للتخلص من الحب والفشل بعدم الوصول الى الرغبات الجامحة وقد افاد هيكل من نقاط شكلية حملتها الرواية لابد وان نتوقف عندها وهي :-

١- وصف الريف : ثمة لوحات وصفية بديعة حملتها زينب في تشخيص ذلك الريف المصري المشهور بالمزارع (٤) . ((انساب المسكين بين المزارع ، حتى جاء الى شاطئ التربة واخذ مقعدا في ظل شجرة صغيرة وهنا نلاحظ بدقة التشخيص المكاني للريف حيث المزارع اكبر سعة ثم الشاطئ اصغر منها وحتى يصل الى الوحدة المكانية الصغيرة ((الشجرة)) وبعد المدخل الوصفي يسترجع عبر المنولوج الداخلي مفكرا بالطريقة التي يخرج بها زينب من هواء الذباب المحيطين بها وهكذا يصرف وقته متمردا على صحة الترهيب ، انها مجموعة احلامية الذائبة مع قطرات ذلك الشاطئ ((حامد يفكر كيف يتسنى له ان يكون الى جانب عزيزة وليس عليها من رقيب ، وان يبت لها ما في نفسه)) وكل هذه الخوارج والعواطف المتأججة تفرش اذرعها (١) مع بساط ذلك المكان وهو يرجع بحلمه ساخرا ضاحكا على عدم تحقيق شيء من الاماني والاحلام وخير ما يكفل وضوح ذاتية الاديب في ادبه ان يتصل بما يكتب بعقله وقلبه وكل حياته وليس ذلك بمستطاع على اكمل وجه الا حينما نصل حياتنا وحياة ابناءنا والبيئة التي انبتتنا والوراثة الكامنة فينا ونصل بذلك حاضرننا بماضي (١) وهنا يظهر لنا هيكل (٢) . مرتبطا بالكلاسيكية التي عاشها في ذلك الصراع المحتدم بينها وبين الرومانسية وهو يشهد تلك الرومانسيات المفعمة بالوجدان مثل كتابات زولا وفلوبير (٣) وقد اشار الدكتور سلام الى تاثر هيكل بالكلاسيكية وقوانينها ومدى تأثيرها على الاخلاق والواجب ومراعاة حوادث الطبقات والتضحية بالعاطفة حفاظا على تلك الاصول والقواعد العامة التي خلقها العرف وتعارف عليها الناس وسنها المجتمع فهناك اكثر من وضع يثبت مدى تاثر هيكل بروسو وهنا لابد ان نتوقف ونحن نشخص الوصف للرواية عند رأي الدكتور بدوي ((ان هيكل في روايته اقرب الى مزاج الرومانسيين منه الى أي مذهب اخر ، فقد لاحظ ان الوصف في زينب يأتي مستقلا عن موضوع الرواية ذلك لان هيكل متأثرا بموقف الرومانسيين منها وبتعلقه ببلاطه كان حريصا على وصف الريف وصفا مستوعبا شاملا وعلى ان يكون وصفه شاعريا جميلا مستمدا من ادبه وسعة خياله وشدة حنينه الى الوطن . وعلى الرغم من هذا الوصف المتناقض مع طبيعة هذه الرواية ذات النزعة المأساوية تبدو اشبه بمنظر بهيج بمسرحية محزنة)) (٤) وهنا يبدو الامر واضحا لايحتاج الى جهد فكر فلو عملنا على رفع ما يتعلق بالوصف فقد تبقى الرواية على ثلث فقط ، لانه اتكا تماما على هذا الغرض ولا نعتبره شعرا كما يحصل في الشعر بل انه اقحام

متناسق مع الأحداث معبر عن ارتباط الشخصيات بالمكان ويؤيد رأينا يحيى حقي حين قال (ان الرواية تجعلك تعيش معها بالريف وتشم رائحة اهله وحيوانه من خلالها)) ويرى الدكتور طه وادي اثر الوصف مهارة وابداع (٥) قائلا ((ان الوصف في زينب لاينم عن رغبة هيكل في اثبات نوع من المهارة اللغوية والقدرة على الوصف يغذيه التأثير الشديد في حب الطبيعة عند الرومانسيين)) (٦) . والحق ان موضوع الوصف في زينب يثير وجهات نظر متباينة على الدوام ، ومن تلك الاشياء ما ذكره الدكتور علي الراعي وهو يدرس الرواية المصرية فقد اعاب على هيكل جمود الوصف بعد ان درسنا رواية زينب لابد ان ان نتوقف عند النتائج الاتية :-

- ١- ان الرواية كتبت في ظروف مصر وكانت قاسية وقد اعتبرت بداية الرواية العربية لما حملته من افاق فنية وملامح رائدة في مطلع القرن الماضي .
- ٢- تعرضت الرواية لعدة اراء للنقاد وكل منهم يرى فيها حسنات ويرى فيها سيئات ومع هذا كله تبقى زينب في مقدمة الروايات العربية .
- ٣- عكست الرواية تاثر الكاتب العربي محمد حسين هيكل بزعيم الدعوات الاصلاحية روسو .
- ٤- تاثر الكاتب هيكل بقصص زولا وخاصة رواية الارض وقد قلده فيها تقليدا كثيرا .
- ٥- ظهر هيكل في روايته مرتبطا بالكلاسيكية وهو يصر على تأكيده الاخلاق والتضحية حفاظا على الواجب .
- ٦- ظهر هيكل وصفه الذي بلغ ثلاثة ارباع الرواية صاحب مزاج رومانسي وكأنه يشتغل عن موضوع الرواية الاساس فيكون هذا الوصف مهارة لغوية وانما قدرة ابداعية
- ٧- أعابة بعض النقاد على هيكل تقليده لزولا وجهود الوصف وثقافته في تشخيص القيم والعادات
- ٨- ظهرت في الرواية روى نفسية عبرت عن حقيقة الانسان والوازع الحقيقي للخلاف بين الرجل والمرأة قد تكررت تلك الصور وحملت صورة الاباحية متأثرة برواية الارض

٩- ثمة رؤى فلسفية ونفسية جاءت في الرواية ركز فيها الكاتب في الحوار والسر وفعل الظواهر كالتسبيح والصلاة والذهاب الى المسجد وخشية العقاب والتعبير عن طبائع النفوس والاحساس بالذنب

١٠ - وجدنا ان رواية زينب في الميزان النقدي جاءت ذات عدة نزعات كلاسيكية ورومانسية وواقعية وقد كانت كلها تنهل من زولا وروايته وبهذا نكون قد توصلنا الى ما نصبو اليه في دراسة وتحليل تلك الرواية ومن الله التوفيق.

المصادر

- | | |
|-----|---|
| ١- | الايام / د- طه حسين |
| ٢- | ادب المقالة الصحفية / د- عبد اللطيف حمزة / ج٤
القاهرة / دار ط١ الحمامي / الاعتماد ط٢ / الجريدة التجارية ط٣ /
الكتاب المصري / ١٩٦٤ |
| ٣- | الادب العربي المعاصر / د- شوقي ضيف / دار المعارف / ١٩٧٢ |
| ٤- | البطل المعاصر في الرواية المصرية . امجد ابراهيم الحواري / بغداد
/ ١٩٧٦ |
| ٥- | تطور الرواية العربية / عبد المحسن طه بدر / القاهرة / ١٩٧١ |
| ٦- | تاريخ اداب اللغة العربية / مصطفى صادق الرافعي |
| ٧- | حديث الاربعاء / د- طه حسين |
| ٨- | حصاد الهشيم وقد الريح / المازني |
| ٩- | خطاء العقلاء / محمد عبده |
| ١٠- | دراسات في الادب الحديث والمعاصر / د- محمد زكريا عنان / مطبعة
السعادة / مصر / ١٩٧٠ |
| ١١- | دراسات في الفلسفة العربية / محمد زغلول سلام / الاسكندرية
/ ١٩٧٣ |
| ١٢- | دراسات في حضارة الإسلام / هيكل / ترجمة العربية / بيروت
/ ١٩٦٤ |
| ١٣- | رواية زينب محمد حسين هيكل / ١٩٦٩ ط / دار المعارف / القاهرة |
| ١٤- | فجر القصة المصرية / مجموعات المكتبة الثقافية / دار المعارف /
القاهرة / ١٩٧٣ |
| ١٥- | في اوقات الفراغ / محمد حسين هيكل |
| ١٦- | في الادب الحديث / عمر الدسوقي |
| ١٧- | فن المقالة / محمد يوسف النجم |
| ١٨- | القصة المصرية وصورة المجتمع الحديث / عبد الحميد ابراهيم / ط
/ القاهرة / ١٩٧٣ |
| ١٩- | مقالات في النقد الادبي / د. محمد مصطفى هدارة / مصر / دار القلم
/ ١٩٦٤ |

- ٢٠- مطالعات في الكتب والحياة / عباس محمود العقاد
٢١- محمد حسين هيكل / حياته وتراثه الادبي / دار المعارف / القاهرة
١٩٦٣/
٢٢- مقومات القصة المصرية الحديثة / محمود حامد شوكت / مصر /
١٩٧٤
٢٣- هيكل في ثورة الادب / الطبعة الثالثة / القاهرة / ١٩٦٥

الهوامش

- ١- مختار الصحاح لمحمد بن بكر الرازي
- ٢- معجم الوسيط ج ٢
- ٣- فن المقالة الادبية
- ٤- فن المقالة محمد يوسف النجم
- ٥- تجديد الفكر العربي
- ٦- مع العقاد
- ٧- في النقد الادبي الحديث محمد غنيمي هلال
- ٨- في الادب العربي الحديث / عمر دسوقي
- ٩- مصطفى صادق الرافعي كاتب عربيا وإسلاميا
- ١٠- أدب المقالة الصحفية / عبد اللطيف حمزة ج ١
- ١١- مقالات / د. علي جواد الطاهر
- ١٢- الأدب المعاصر في مصر / د. شوقي ضيف
- ١٣- المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر / أنور الجندي
- ١٤- المنفلوطي حياته وأدبه / محمد أبو الأنوار
- ١٥- النظرات / المنفلوطي / ج ٣
- ١٦- أسواق الذهب / أحمد شوقي
- ١٧- صهاريج اللؤلؤ / توفيق البكري
- ١٨- حديث الأربعاء / د. طه حسين
- ١٩- في أوقات الفراغ / محمد حسين هيكل
- ٢٠- مطالعات بين الكتب / عباس محمود العقاد